**المحاضرة الأولى: النثر الفني في الأدب العربي القديم.**

**مقدمة:**عرف العرب قدر الكلمة المنثورة وأولوها اهتماما بالغا،وارتبطت عندهم بالخلافة والحكم ارتباط سبب قوى ووسيلة هامة ،وكم من خليفة ارتفعت خلافته بحكمة قوله وسحر بيانه.

أ-**النثر لغة:**

يقول صاحب اللسان: «النثر نَثرُكَ الشيءَ بيدك ترمي به متفرقا مثل نثر الجوز واللوز والسکر وکذلك نثر الحبّ إذا بُذر".

**ب-النثر اصطلاحاً:**

هو الکلام الذي ليس فيه الوزن ويعتمد علی الحقائق.

2**-نشأة النثر الفني:**

**أ- النثر الفني في العصر الجاهلي:**

لم يحظ فيه النثر بما حظى به في الأزمنة التالية،ولم يهتم العرب في جاهليتهم بفن من فنون القول مثل اهتمامهم بالشعر،الذي طغى على غيره من فنون القول الأخرى التي رصدت معه في عصره،كالخطابة والمواعظ والحكم والأمثال .

"يؤکد الدکتور زکي مبارك أنه قد کان للعرب في الجاهلية نثر فني له خصائصه وقيمته الأدبية، وأن الجاهليين لابد وأن يکونوا قد بلغوا في ذلك المضمار شأوا بعيدا لا يقل عما وصل إليه الفرس واليونان في ذلك الوقت، بل أنهم في إنتاجهم الأدبي في النثر لم يکونوا متأثرين تأثراً کبيرا بدولة أخری مجاورة أو غير مجاورة، وإنما کانت لهم في کثير من الأحيان أصالتهم وذاتيتهم واستقلالهم الأدبي الذي تقتضيه بيئتهم المستقلة، وحياتهم التي کانت أقرب إلی الانعزال. وإذا کانت الظروف المختلفة لم تساعد علی بقاء هذا التراث من النثر الجاهلي، فليس معنی ذلك أن نهدره ونحکم بعدم وجوده، وإنما يجب أن نلتمسه في مصادر أخری. ونحن إن فعلنا هذا فسوف نجد بين أيدينا حجة لا تنکر، ودليلا لا يجحد علی أن ثمة نثرا جاهليا، ألا وهو القرآن الکريم. فإذا کنا نؤمن بأن هذا القرآن قد نزل لهداية هؤلاء الجاهليين، وإرشادهم، وتنظيم حياتهم في نواحيها المختلفة من دينية، وأخلاقية، وسياسية، واجتماعية، واقتصادية، وأنه کان يخاطبهم وهم بطبيعة الحال لا يخاطبون إلا بأسلوب الذي يفهمونه ويتذوقونه، وأنه کان يتحداهم في محاکاته، والإتيان بسورة من مثله ولا يسوغ في العقل أن يکون هذا التحدي إلا لقوم قد بلغوا درجة ما من بلاغة القول، وفصاحة اللسان تجعلهم أهلا لهذا التحدي حتی يصدق معناه، إذا کان هذا کله، وأن القرآن الکريم قد نزل بلغة العرب وعلی لسان واحد منهم ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾ .

**ب-النثر الفني في العصر الإسلامي:**

النثر الفني في عهد النبوة، لم يکد يختلف اختلافا جوهريا عن النثر الجاهلي. «دخل النثر العربي في طور جديد بظهور الإسلام، بعد أن تعرضت الحياة الأدبية لانقلاب شامل وتطور بعيد المدی. ولم يکن ثمة بد من أن يتأثر الأدب بالحياة الجديدة وأن يکون صدی لأحداثها واتجاهاتها. وکانت مظاهر التطور في النثر أوضح منها في الشعر، لأن الشعر فن تقليدي يترسم فيه الشاعر خطا سابقيه، ويلتزم أصولا محددة، ولذلك يکون أبطأ من النثر استجابة لدواعي التطور.

وقد رسخ أقدام النثر ووطد أركانه،ومد أطنابه وثبتها حتى جعله في مكانة تنازع مكانة الشعر وأهميته،ومما ساعد علة ذلك جملة أمور ،نذكر منها:

-ميل القرآن الكريم إلى النثر وكذلك كلام النبي (ص) ،وقد كان في الاهتمام بهذين المصدرين المقدسين من المسلمين تغليب للنثر في أرقى صوره على ما كانوا يعظمونه ويعلون من شأنه من شعر،فقد كانوا حريصين على حفظ أكبر قدر من القرآن الكريم(..)وحرصوا كذلك على حفظ كلام النبي (ص) ففيه تفصيل ما أجمل القرآن الكريم وتخصيص ما عمم.

-دخول الخطابة ضمن شعائر الإسلام،وأصبح لزاما على المسلمين في بعض عباداتهم أن يقيموا خطبة،منها الأسبوعية كخطبة الجمعة،والسنوية كخطبة عرفة ...

-تقلص مجال الأغراض الشعرية التي كانت شائعة في العصر الجاهلي،فقد نهى الإسلام عن الهجاء و التنابز بالألقاب والغيبة والنميمة (...) وكثير من عادات الجاهلية التي تتعارض تعاليم الإسلام والتي كانت تشغل بعض أغراض الشعر في الجاهلية.

-وربما شعر المسلمون إيثار الإسلام النثر على الشعر من قوله تعالى:"والشعراء يتبعهم الغاوون(224)ألم تر أنهم في كل واد يهيمون (225)وأنهم يقولون ما لا يفعلون (226)".

كما تلوّن النثر في هذا العهد بجميع ألوان الحياة الجديدة فکان خطابة، وکتابة، ورسائل وعهودا، وقصصا، ومناظرات، وتوقيعات.

**ج-النثر في العصر الأموي:**

کانت الکتابة ضرورة إدارية ملحة لا غنی عنها في إدارة شؤون الدولة والمجتمع، في المکاتبات والدواوين المختلفة. کما کانت ضرورة اجتماعية لا غنی عنها في المعاملات.

وکانت کذلك ضرورة علمية لا غنی عنها في الحرکة العلمية التي ازدهرت في العصر الأموي وتعاظمت في أواخره. ونتيجة لذلك کله توسع انتشار الخط واستعمال الکتابة، إبان ذلك العصر، توسعا عظيما، نظراً لإقبال الناس علی طلبه.

يقول الدکتور شوقي ضيف: « الکتابة نمت في العصر الأموي نموا واسعا، فقد عرف العرب فکرة الکتاب وأنه صحف يجمع بعضها إلی بعض في موضوع من الموضوعات، وقد ألفوا فعلا کتبا کثيرة".

وقد کانت لمن يعرف الکتابة مکانة رفيعة عند الناس، إذ کانوا يعرفون له قدره.

ولعل من أهم الأسباب التي هيأت لرقي الکتابة الفنية في هذا العصر، تعريب الدواوين في البلاد المختلفة، وتعقد الحياة السياسية، وکثرة الأحزاب والمذاهب.

ولقد أجمع النقاد والمؤرخون في القديم والحديث علی أن (عبدالحميد الكاتب)إمام طور جديد في الکتابة العربية، وأنه هو الذي وضع الأساس لهذا المنهج الکتابي الذي اقتفاه الکتاب من بعده، وهو «أبلغ کتاب الدواوين في العصر الأموي وأشهرهم، وقد ضربت ببلاغته الأمثال.

ج-**النثر في العصر العباسي:**

زخر العصر العباسي بالأحداث التاريخية، والتقلبات السياسية، کما زخر بالتطورات الاجتماعية التي نقلت العرب من حال إلی حال، وقد کان لکل هذا، فضلا عن نضج العقول بالثقافة، أثر واضح في تطوير الأدب بعامة، والکتابة بصفة خاصة.،و تقدمت الکتابة الفنية في هذا العصر تقدما محسوسا؛ وسارت شوطا بعيدا في سبيل القوة والعمق والاتساع.

وأصبح النثر العربي في العصر العباسي متعدد الفروع، فهناك النثر العلمي والنثر الفلسفي والنثر التاريخي، والنثر الأدبي الخالص، وکان في بعض صوره امتدادا للقديم؛ وکان في بعضها الآخر مبتکرا لا عهد للعرب به.

وکان تشجيع الخلفاء والوزراء والرؤساء للأدب وللکتاب باعثا علی النهوض بالکتابة، داعيا إلی ارتفاع شأنها، وسمو منزلتها، ثم کان التنافس القوي بين الأدباء وتسابقهم إلی خدمة الخلفاء والرؤساء حافزا علی تجويدها والتأنق في أساليبها.  
وهي بمثابة جواز عبور إلی الوزارة وبعض الوظائف المرموقة في مرافق الدولة .

والأغراض التی عبر عنها النثر الفني في هذا العصر اتجه إلی کثير من الأغراض والموضوعات الشخصية والاجتماعية والإنسانية؛ کالمدح والهجاء والرثاء والاعتذار والتهنئة والتعزية والاستعطاف، والوصف والنسيب والفکاهة والنصح.

**ومن بين أسباب نهضة النثر في العصر العباسي:**

1- استقرار الأمور في الدولة واتساع العمران، وما يتبع ذلك من رخاء.

2- النضج العقلي وظهور آثار التقدم الفکري في الدولة.

3-ظهور أجيال جديدة من المثقفين من أبناء الأمم المستعربة الذين جمعوا إلی الثقافة العربية الأصيلة فنونا جديدة من ثقافات آبائهم الفرس، الهنود و اليونان.

4- تشجيع الخلفاء والأمراء للکتاب وإغداق الأموال عليهم.

5- وصول الکتاب إلی المناصب الکبيرة جعل الکتابة مطمح کل راغب في الجاه والسلطان.

6- کثرة المذاهب الکلامية وحاجة کل مذهب إلی التأييد وشرح مبادئه.

خاتمة:نستطيع القول بأن النثر خطا خطوة واسعة؛ فهو لم يتطور من حيث موضوعاته وأغراضه فقط؛ بل إن معانيه قد اتسعت وأفکاره قد عمقت، وأخيلته قد شحذت؛ لأن مشاهد الحياة ومقوماتها العامة قد تغيرت.